ليس بعد

فكل ما مضى من صفحات هو مجرد بعض من أوراق حكت عن بعض من مناضلين. أعرف أن «البعض» لغة عددهم من ثلاثة إلى خمسة. لكننى أعرف أن الورقة التى تتحدث عن سيرة مناضل هى بألف ورقة. وأن المناضل الوطنى أو اليسارى هو بألف مما تعدون عدداً.

ليس بعد.. لأن مسيرة البحث فى مسيرة مئات بل وآلاف من المناضلين تتبدى لى وربما للقارئ وكأنها بلا نهاية. وما كان أمامى إلا أن أختصر، وإلا أن أختار، لم أفاضل بين مناضل وآخر وإنما أتى من أتى لأننى نجحت فى اقتناص معلومات عنه. اقتنصت البعض وأفلت الكثير من بين أصابعى. حاولت. اجتهدت. رحلت عبر مدن لم أعرفها من قبل، وإلى بلدان ما كان لى أن أذهب إليها لولا أننى تعقبت هناك معلومات قد لا تعطى سوى سطر أو سطرين، ولكن ما حيلة العاشق فى عشقه. ساقنى الشوق لهؤلاء المناضلين رغم أن أغلبهم قد رحل.. فذهبت لأفعل كما فعل قيس.

أمر على الديار ديار ليلى
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى
ولكن حب من سكن الديارا

فحتى رفاعة الطهطاوى إذ بدأت به وجمعت كل ما أحتاج من أوراق، وكتبت عنه وعن مسيرته مرات عديدة، فإننى أنتهز فرصة زيارات باريسية وإلى جوار مبنى البانثيون حيث لم تزل تقيم مدرسة البوليتكنيك التى حافظ عليها الباريسيون وحافظوا حتى على السور الحديدى المنخفض الذى كان الأساتذة والتلاميذ يربطون فيه خيولهم. هناك أستمتع عديداً من المرات بإفطار من الكرواسون والاكسبرسو فى مقهى قديم جداً، كل شىء فيه يوحى إليك أنه أقدم كثيرا من البانثيون والبوليتكنيك ورفاعة وزملائه. أجلس لأنصت إلى وقع حوافر حصان رفاعة وأكاد أراه وهو يربط حصانه ثم يسوى عمامته وينطلق عبر البوابة

الحديدية العملاقة. تماما كما أفعل كل يوم وأنا أصعد إلى مقر حزب التجمع. فهنا كان النادى الشرقى منذ نصف قرن، وهنا كانت مملكة نقولا حداد حيث ألقى مئات من المحاضرات وحيث انزوى فى صباحات جميلة ليكتب. وحيث ألقى محاضرته الأخيرة رغم إصابته ببرد شديد وتحذير الطبيب المعالج بعدم مغادرة الفراش، لكن محاضرة عن علم الجمال كانت واجبا. وخرج ليمضى ليلة أو ليلتين محتضراً ثم يرحل. كل صباح وأنا أصعد السلم أتخيل إنه سيأتى هابطاً السلم أو صاعداً ممشوق القوام عالى الهامة وكوفيته ملتفة حول عنقه وتحت إبطه كتاب يتحتم أن يوجد.

إنهم يتلبسوننى وكأنهم يطاردوننى فكم من بلد زرته بحثاً عن آثار شخص رحل، لكننى أسعى نحو وقع أقدامه ورفاق طريقه وابن أو حفيد وهكذا إhتحلت إلى حيث تناثروا، أو حيث وجدت أسرهم وما تبقى من أخبارهم.. باريس - روما - قبرص - أثينا- صوفيا - مالطة - بيروت - زحلة - وادى حلفا - الخرطوم - بورسودان - ومراسلات إلى بلاد أخرى ترامت حتى أمريكا وكندا وأستراليا.

ولم يكن الأمر سهلا، لكنه لم يكن متعبا بل كان شيقا وجميلا.

وإذ تبدأ معاناة الكتابة فإنك إذ تخط بالقلم تستشعر وكأن وقع أقدام زوار الفجر يطن فى أذنيك، ووقع العصى ودوس الأحذية ووطء الأقدام الغليظة والقبضات العاتية.. ويسرقك البوح نحو خيالات لا تخبو فترى محمود دويدار مربوط اليدين بحبل يمكسه جندى تركى فوق صهوة حصان بينما السجين يمشى طوال رحلة استغرقت أشهراً سيراً على الأقدام من إستنبول وحتى الحدود السورية. أو ترى عبد الرحمن فضل ملقي بين السماء والبحر فى رحلات لا تنتهى بين بيريه والإسكندرية. فى بلده يرفضون نزوله لأنه قد سحبت منه الجنسية، وفى بيريه يرفض النزول متمسكا بمصريته. ويصمد وينجح كما صمد دويدار ونجح. هذه البطولات لا تأتى إلى الورق عفواً وإنما عبر حالات من معاناة أسطورية.

والأسماء أكثر من أن تحصى. لكنها يجب أن تحصى. ويجب أن تطارد حقائقها حتى نرصدها ونسجلها فى السجل الأبدى لنضالات اليسار المصرى.

وحتى الشهداء لم يأتوا جميعا. بانتظار معلومات أوفر. رشدى خليل طالب الهندسة الباسل تركوه ملقى على الأسفلت مصاباً بالحمى يوما بعد يوم، تركوه خوفاً من أن يأمر طبيب بنقله إلى مستشفى بالخارج فيجد الفرصة ليفضح ما فى سجن أبو زعبل من جرائم

وتعذيب وحشى. تركوه حتى تسحبت أنفاسه الأخيرة. فريد حداد الطبيب الوديع الذى كان يزهو دوما بأن نقولا حداد عمه. ضربوه، ضربوه كى يستعطفهم ويقول ما يريدون، واصفا نفسه بأوصاف تأباها كرامته. يقولون قل، فيرد «أنا طبيب مصرى شيوعى»، فيضربوه كى يصف نفسه بما يريدون أو يستعطفهم كما يريدون فيردد ذات العبارة. يأمره الضابط المتوحش «بلاش تقول شيوعى وانا اسيبك»، فيقول فى إصرار يموج بدوامات الاقتراب من الرحيل.. «أنا.. طبيب.. مصرى.. شيوعى..»، ولا يتركوه حتى يترك لهم الحياة.

وشهدى الذى أبى أن يقول حتى اسمه. ناداه الضابط شهدى عطية الشافعى. فإذ أتاه سأله اسمك إيه؟ فقال أنت تعرف اسمى وناديتنى به. فضربوه. ضربوه. لكى يقول اسمه منتهيا بكلمة «يا أفندم». وبعدها يقولون له قول أنا (...) فاختصر الطريق وصمم على «إنت تعرف اسمى». ضربوه حتى رحل شامخاً.

وهكذا سيبقى الواجب الحتمى باستكمال متحف كلمات الصمود اليسارى. ليس لمجرد أن تحفظ ذكراهم وأن نخلد صمودهم، وأن نقدمهم كدرس وقدوة للمناضلين الجدد.. وإنما لنكشف جرائم السجون الناصرية. ليس فقط لنقول الحقيقة.. وإنما لتكون الإدانة معلقة على رؤوس من فعلوها، وتحذير من يحاولون استعادة ما كان من إهدار لآدمية الخصوم السياسيين.

ولعل من حقنا أن نسأل: إذا كان هذا التعذيب الجماعى والنازى المذاق. فى كل السجون المتشحة بالإجرام، يعذب السجين كى يبوح. كى يعترف على رفاقه. يفشى أسراراً مطلوبة.. لكن السجون الناصرية كانت ترفع شعار التعذيب من أجل التعذيب. كان التعديب فيها مجرد هواية تستهدف كسر إرادة المناضل. لأن هناك فى أحد الأدراج ورقة توقع عليها تستنكر فيها المبدأ وتؤيد فيها الزعيم. وساعتها ستخرج وقد انكسرت رجولتك وتخليت عن شرفك وأصبحت مجرد: «خرقة» وساعتها ستصبح مقبولاً منهم.

وأتذكر ولى الدين يكن الذى عانى من النفى على يدى السلطان عبد الحميد.. ثم إذا بعبد الحميد يتعرض للنفى فيكتب له ولى الدين:

سلاما أيها النافى الرمايا
ولا تجزع فخالقهم نفاكا
وما أنا شامت بك حين تبكى
كمن شمتوا ولكن ذا بذاكا

ليست شماتة، ولا استعادة لجراح قديمة، ولا حتى تسجيلا لتاريخ كان، وإنما إنقاذ للوطن من التكرار. فالجريمة قد تعود. وعلينا أن نمنع عودتها بأن نعلق تيجان العار على من ارتكبوها مؤكدا.. ومتأكدا من صحة ما رثى به شاعر العربية العظيم محمد المهدى الجواهرى الزعيم عبد الناصر فقال:

أكبرت يومك أن يكون رثاءً
فالخالدون عهدتهم أحياء
لا يعصم المجد الرجال وإنما
كان العظيم المجد والأخطاء

ولعل البعض يتلفت حوله متسائلاً : فيماكان ذلك كله؟ وأى حصاد حصدتم؟ وسمعت واحداً من الرفاق يرد.

لا تلم كفى إذا السيف نبا
صح منى العزم والدهر أبى

لكننى أرفض هذا المنطق. فتضحيات اليسار لم تذهب هباء. بل إنها حفرت نفسها وشما على جسد الوطن فكرست رفضا لإنكار الآخر وإدانة لانتهاك حقوق الإنسان وترويعا لكل من يحاول أن يبرر ما كان أو أن يستعيد ما كان. بل إن أفكار اليسار فرضت نفسها على الخصم المتجبر فما لبث أن ردد – وإن على استحياء – بعضا مما يقولون..

ويمضى طابور المعذبين أمام ناظرى لأراهم وهم تحت وطأة التعذيب يخفون آلامهم ويقهرون صرخاتهم، بل وأحيانا يدارون ابتسامات تسخر من هذا الجبروت الغبى الذى لا يعرف أن المعتقد يحمى صاحبه من الخذلان. وأن التعذيب يمتلك مذاقاً خاصاً إذ تصمد وكأنك مع كل ضربه تناجى مصر وتبلغها حبك.. ألم يقل الشاعر وهو مطعون برمح ومضروب بسيف مناجيا معشوقته:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى
وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كباسم ثغرك المتبسم

ناضلوا، صمدوا، احتملوا، حملوا عشقهم لمصر وللشعب فوق هاماتهم.. ولم يطلبوا شيئا ولم يتباهوا حتى بصمودهم. لقد فعلوا ما وجب أن يفعلوا واكتفوا بذلك دون زهو أو حقد أو طلب لمغنم.

يحكيك من شهد الوقيعة أننى
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ولهذا كانت الكتابة درساً للمناضلين.. وأعف عند المغنم. وقدوة لهم.. وأعف عند المغنم. ونموذجا للنضال اليسارى.. وأعف عند المغنم.

ولهذا كان من المحتم أن نحاول استكمال الكتابة عن هؤلاء الرجال والنساء الذين فعلوا ما هو أكثر من المستحيل لخدمة الوطن والمعتقد والشعب وهؤلاء الذين بذلوا أجمل سنوات حياتهم فى زنازين نازية وتحملوا فوق ما يحتمل البشر، منحوا وطنهم طاقات ضوء يسارى توزعت أشعته فى قلوب تعلمت كيف تعشق العدل والحق والحقيقة وكيف تناضل من أجلها.. وتمسكت بما تعلمت ففرضت على الجميع حكاما ومحكومين نماذج من التعامل تفسح هامشاً من الفعل الديمقراطى. ليس كافيا لكنه لم يكن ممكناً فى الزمان القديم. فمن أين أتى هذا الفيض؟ إنه ثمرة الصمود اليسارى الذى لقن الحكام أن تجاهل الديمقراطية سوف يسوقهم إلى حمى النازية وأن الجماهير قد تلقنت فنون الاحتمال. والكبرياء. والعناد.

أرى العنقاء تبكر أن تصادا
فعاند ما استطعت له عتادا

* * *

ثمة مئات آخرون من أبطال يساريين الكتابة عنهم والتعلم على أيديهم طقس وطنى واجب الأداء ودرس يستحق الاستيعاب، ولهذا كان كل ما سبق هو مجرد الجزء الأول من مسيرة اليساريين.

ولهذا كان من الضرورى أن أحاول استكمال الجزء الثانى الذى اكتمل منه جزء كبير، ولهذا فإننى أستصرخ الكتاب والباحثين والمناضلين اليساريين أن يسهموا هم أيضاً فى استكمال الكتابة عن هؤلاء المناضلين.

فهم يستحقون..

ومصر تستحق أن يدون هذا الجزء العزيز من تراثها..

والجيل الحاضر والأجيال القادمة تستحق أن تتعلم كيف كان النضال وكيف يكون.

* * *

على أننا نخالف الحقيقة مخالفة جسيمة إذا قدمنا اليساريين المصريين على أنهم مجرد

أشخاص احتملوا العذاب والتعذيب فى سبيل المبدأ، وتحملوا سنوات طوال من السجن فى جلد وصبر. ذلك أن اليسار المصرى كان، وعلى مدى القرن الماضى وقبله وبعده، قادراً على الإسهام فى تشكيل ملامح الفكر والفن والعلم ومختلف مجالات الإبداع بأسلوب تقدمى وعلمى وعقلانى طوال مراحل تكونه الحديث وفى مختلف معالمه وفروعه.

لم يكن اليسار المصرى مجرد مكياج مختلف على الوجه المصرى. أو حتى محاولة سطحية لتجميله. بل كان عنصراً فاعلا فى تكوينه وتغيير معطياته باتجاه ليبرالى وتقدمى وعقلانى. وظل الوجود اليسارى وسيظل جزءاً أصيلا من الوجدان المصرى ومن عقله المتفتح والمنفتح.

إن وقفة تأمل تمنحنا كماً مثيراً للدهشة من التفاعل اليسارى مع العقل المصرى ومن التأثير فيه والتأثر به فى وجود جدلى دائم ومستمر، إن محاولة استعادة الأسماء التى كتبت على جدران الوطن وزينت حوائطه فى مختلف المجالات تعطى صورة غير قابلة للنسيان عن الوجود اليسارى المتفاعل تأثيرا وتأثرا فى تاريخ العلم والعقل والفكر والسينما والمسرح والشعر والصحافة والرسم والكتابة التاريخية وغيرها من مجالات العلم الفكرى والسياسى والعقلانى.

وإذا كان جان جاك روسو قد أعلن أن بناء النهضة الحقيقية لأى أمة يقوم على أساس الموسوعات والموسوعيين، فإن التأمل فى طابور المفكرين اليساريين الموسوعيين سيعطينا إحساسا بأن الفكر الموسوعى كان منتسبا وبشكل شبه حصرى لليسار. فشبلى شميل ويليه فرح أنطون ونقولا حداد ورفيق جبور ثم إسماعيل مظهر وسلامة موسى وعبد الله عنان كانت كتاباتهم الموسوعية جزءاً أساسيا من بناء العقل المصرى ولم تزل كذلك، وستظل. ويتواصل العطاء اليسارى فى سجل الموسوعات ليصل بنا إلى مفكر صامت وفاعل وربما لم يسمع به الكثيرون هو سعد الفيشاوى الذى اختبأ عن أنظارنا سنين طوالا لينتج موسوعته الرائعة «موسوعة العقائد الدينية» وينجزها فى عام ٢٠٠٧، وما إن تصدر حتى يلتقط آخر ما تبقى من أنفاس ويرحل.

فإذا ما جئنا إلى مختلف مجالات العلوم والإبداع وحتى الفقه نجد أسماء بغير حصر قدمت لمصر إبداعات فى مجالات تجديد الفكر الدينى والاقتصاد والفلسفة والأدب والقصة والمسرح والسينما وعلوم الهندسة والرياضيات.

ولو أردنا السرد لاستغرقنا عديداً من الصفحات ولنسينا عديداً، من المئات فقط نتذكر بعضاً من الرموز نوردها عفو الخاطر ودون ترتيب: الشيخ د. سعاد جلال عضو هيئة كبار العلماء، الشيخ صفوان أبو الفتح، الشيخ أبو الحسن الغنيمى، عبد الرحمن الشرقاوى،

عبد الرحمن الخميسى، محمود رمزى نظيم، فؤاد حداد، كمال عبد الحليم، أحمد فؤاد نجم، سمير عبد الباقى، د. فؤاد مرسى، د. إسماعيل صبرى عبد الله، د. رمزى زكى، أحمد كامل مرسى، أحمد بدرخان، صلاح أبو سيف، يوسف شاهين، خالد يوسف، أحمد عقل، محمود أمين العالم، د. عبد العظيم أنيس، د. ميلاد حنا، د. فايق فريد. صاروخان، زهدى، جاهين، حجازى عبد السميع، عبد المنعم القصاص، عبد الغنى أبو العينين، جمال كامل، حسن فؤاد، فؤاد كامل، التلمسانى، صلاح السقا، رؤوف، رمسيس يونان، أحمد رشدى صالح، صلاح حافظ، لطفى الخولى، فتحى الرملى، محمد عودة، محمد مندور، لويس عوض، مجدى وهبة، مراد وهبة، وأدرك يقينا أن قامات بالغة الأهمية وربما أكثر أهمية قد غابت فى غابة تزاحم أسماء لا تنتهى.

وعلى أى حال استطالت الكتابة، ومهما تنوعت، فإنها لن تستطيع أن تستوعب بعضا من منارات يسارية فى مختلف المجالات أسهمت فى بناء الدولة المدنية المصرية فكرا وعقلا وعلما وفنا، وكانت كل قامة من هذه القامات نواة تجمع حولها تلاميذ وحواريون أسهموا فى خلق الصورة التقدمية للوطن المصرى عبر إبداعات لا تنتهى.

ولعل أهم إبداعات الفكر السياسى اليسارى فى مصر هو الخروج من شرنقة الحزب علنيا كان أو سريا نحو آفاق من العمل الجماهيرى من المنظمات النقابية والتجمعات الجماهيرية والأندية الثقافية والأدبية بحيث يصبح الفعل التنظيمى ملتصقاً بفعل جماهيرى ونقابى وثقافى يستوعب مساحات جماهيرية أوسع. أما الإبداع الثانى والأهم فهو ما تجاسرت فأسميته «التناقض المتداخل» والذى كان المحور الأساسى لرسالة دكتوراه العلوم التى أعددتها تحت عنوان «اليسار المصرى كيف أثر فى مصر وكيف تأثر بها»، وتقوم الفكرة على أساس قدرة اليسار المصرى على امتلاك آليات للتداخل العضوى والفكرى مع طرف آخر قد يكون مختلفاً أو حتى قد يكون خصما، ومن خلال هذا التداخل وعبر مسار فكرى جدلى وفلسفى استطاع اليسار (منظمة طليعة العمال) أن يتداخل مع مسيرة حزب الوفد فى أربعينيات القرن الماضى ليؤثر فيه تأثيراً عضوياً؛ إذ تتشكل عبره «الطليعة الوفدية» التى أصبحت جناحاً يسارياً فى الحزب، ومن ثم فتحت أبواباً للتحالف، أو بالدقة شبه التحالف مع اليسار فى عمل وطنى جماهيرى واسع المدى وواسع التأثير وهو «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» التى قادت مظاهرات من مئات الألوف من المتظاهرين فى القاهرة (٢١ فبراير) والإسكندرية (٤ مارس) وفى مظاهرات وطنية صاخبة فى الجامعات والمدارس طوال عامى ١٩٤٦ - ١٩٤٧.

وتمتد فكرة التناقض المتداخل لتتضح أكثر فى العلاقة بين اليسار وعبد الناصر. ففيما كان عبد الناصر يعذب السجناء الشيوعيين تعذيبا وحشياً كان يلتقط من أدبياتهم وكتاباتهم واجتهاداتهم الفكرية عديداً من الأفكار التى دفع بها إلى التطبيق بعد تحويرها لتتلاءم مع عقلية البرجوازية الصغيرة. ولعل مطالعة متأنية للميثاق سوف نكتشف حديثا عن إذابة أو تقريب «الفوارق بين الطبقات» بدلا من «إلغاء» هذه الفوارق، وتعبيرات تقترب من «الصراع الطبقى» ومن «الاشتراكية العلمية» ومن التفكير الجدلى.

ومن الطبيعى أن يكون هذا التأثير متبادلا. ولعل هذا التأثر بالناصرية من جانب اليسار قد تجاوز حدوده ليتمثل فى قرارات حل الحزب.

لكن هذه الفكرة الفلسفية والعملية لم تزل تتجلى كأحد مميزات اليسار المصرى، فما كان لعبد الناصر أن يتقارب من فكرة ويرسخها فى كتابات وإنجازات لولا أن أصحابها قد تألقوا بها قولا وفعلا. دون أن ننكر أثر العلاقة بين عبد الناصر والمعسكر الاشتراكى.

وباختصار كان اليسار المصرى، وأعتقد أنه لم يزل وسيظل، جزءاً أصيلا من مكونات العقل المصرى والفكر المضىء فيه بالتقدمية والليبرالية واحترام العقلانية وثمارها المبدعة.

فالفكر اليسارى وكذلك الفعل لم يكن مجرد مكياج جرى تزيين وجه مصر به فى زمن كان ثم انقضى. بحيث يمكن الاغتسال منه. إنه وشم لا يمحى لأنه جزء من مكونات العقل المصرى وهو مكون مبدع وخلاق ومتداخل فى نسيج الوجدان المصرى بحيث يظل قادراً على البقاء والتأثير حتى لو تبدى وكأنه يتوارى أو ينكمش.

وإلى لقاء فى مجلد ثان عن مناضلين يساريين لم يزالوا ينتظرون أن نكتب عنهم فى طابور لا ينتهى بل متجدد.